Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 41

الحضـور المغيّـب

للتجربة العربية في الدرس المقارن

عبد النبي اصطيف *

الدرس المقارن للأدب، ومنذ ولادة الأدب المقارن في الربع الأول من القرن التاسع عشر، درس أملته طبيعة الأدب الغربي عامة، والأدب الفرنسي خاصة، وتجاربهما الغنية في التفاعل مع الآداب القومية الأخرى البعيدة زماناً ومكاناً (كالآداب الكلاسيكية الغربية، أي الأدبين اليوناني واللاتيني)، والقريبة زماناً ومكاناً (كالآداب الأوربية الحديثة والمعاصرة) والتي حدّدت في الواقع تعريف بول فان تيغم المشهور الذي قدّم به فصله المعنون بـ «مناهج الأدب المقارن ونتائجه» فكتب فيما دعاه بـ «مبادئ ومناهج عامة»، موضحاً معالم هذا النحو الجديد من الدرس الأدبي:

«موضوع الأدب المقارن، ...، هو دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض. فيجب أن يشمل إذن -إذا نظرنا إلى العالم الغربي فحسب- علاقات الأدبين اليوناني واللاتيني أحدهما بالآخر ثم ما تدين به الآداب الحديثة منذ العصور الوسطى للآداب القديمة: ثم العلاقات بين الآداب الحديثة المعاصرة. لكن هذا القسم الأخير، وهو أوسع الأقسام وأكثرها تعقيداً، هو المقصود عادة من قولهم الأدب المقارن، وذلك لأسباب عملية على وجه الخصوص»(١).

والناظر إلى نظريات الدرس المقارن التي أنتجها الغربيون (المدرسة الفرنسية، والمدرسة الأمريكية، والمدرسة الاستقبالية، والمدرسة السلافية إلى حد ما، والمدرسة الصورية، والمدرسة الترجمية) يستطيع أن يتبين بوضوح أنها، فيما خلصت إليه من آراء وأفكار وأنظار تتصل بطبيعة الأدب المقارن ووظيفته وحدوده، إنما كانت تصدر أساساً عن تجارب آداب العالم الغربي في التفاعل فيما بينها، وأنها في أحيان قليلة جداً كانت تعنى بتجارب التفاعل فيما بينها وبين الآداب القومية الأخرى. وبعبارة أخرى إن هذه النظريات كانت، فيما تخرج به من آراء وأنظار وقوانين، تستحضر في الغالب علاقات التفاعل البينية السائدة في الآداب الغربية، مغضية الطرف في معظم الأحيان عن علاقات هذه الآداب بآداب الأطراف والضواحي البعيدة عن المركز الأوربي-الغربي، حتى أن الباحثة ماريا روزا مينوكال، التي سعت في كتابها إلى تفحص «**الدور العربي في التاريخ الأدبي الوسيط**»(٢) للعالم الغربي، اختارت له عنواناً فرعياً هو: **تراث منسي .A Forgotten Heritage**

وباستثناء كتب محدودة لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة، فإن الكثرة الكاثرة من الكتب المعنية بنظريات الدرس المقارن للأدب والتي صدرت في الغرب والشرق معاً حتى مطلع الألف الثالثة، أهملت على نحو ملحوظ تجربة الأدب العربي في التفاعل مع الآداب الأخرى ولاسيما الآداب الأوربية، على الرغم من عراقة هذه التجربة وغناها وتنوعها وفسحتها الواسعة الممتدة امتداد العالم واستمراريتها وهي مواصفات لا يشركها فيها غيرها من آداب العالم.

لقد تفاعل الأدب العربي منذ أيامه الأولى مع

* أكاديمي من سوريا.

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 42

الآداب الأخرى وكان تفاعله هذا يزداد مع مرور القرون اتساعاً وغنىً وتنوعاً، وكان أدبنا بدوره يزداد من خلال هذا التفاعل اغتناءً بتجارب الآداب الأخرى. ففي العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام تفاعل هذا الأدب مع الأدب الأمهري، والأدب الفارسي، والأدب اليوناني، والأدب السرياني، والأدب اللاتيني. وفي العصرين الأموي والعباسي اتسعت دائرة تفاعله لتشمل الأدب الهندي، وآداب آسية الوسطى، والآداب اللاتينية الأوربية (وبخاصة في فسحتي الأندلس وصقلية)، وآداب إفريقية (التي شمل الفتح العربي الإسلامي أجزاء كبيرة من أقاليمها، وامتدت إليها التجارة عبر الصحراء الكبرى بين شمالي القارة ووسطها وجنوبها)، وآداب شعوب جنوبي شرقي آسيا التي انتشر فيها الإسلام ولغة القرآن عن طريق التجار العرب الذين تألفوا قلوب تلك الشعوب بحسن معاملتهم وأمانتهم وطيب معشرهم فدخلوا في دين الله أفواجاً، والآداب الأمريكية في شمالي القارة ووسطها وجنوبها والتي هاجر إليها العرب بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر وربما قبله مع مكتشفي أمريكا الذين استعانوا في رحلاتهم الأولى بخبرات البحارة العرب ومعرفتهم(٣).

وعندما نصل في تتبعنا هذا لمسيرة تفاعل أدبنا العربي مع الآداب الأخرى إلى العصر الحديث نتبين أن الإحاطة بشبكة علاقاته مع الآداب الأخرى أمر مستحيل على باحث واحد فهي بحاجة إلى فريق كبير من الباحثين ولا سيما أن هذه الشبكة تكاد تضم الآن معظم آداب العالم بما في ذلك آداب الشرق الأقصى (اليابان وكوريا والصين) والأدب الأسترالي، وآداب أفريقية الجنوبية، فضلاً عن آداب العالمين القديم والجديد التي تقدّم ذكرها.

وفضلاً عما تقدم، فإن هناك وجهاً آخر مهماً من وجوه هذا التفاعل الأدبي العربي-الأجنبي هو التفاعل الراهن بين الأدب العربي الحديث والمعاصر المكتوب باللغات الأجنبية وبين آداب تلك اللغات. وهو تفاعل مركب وغني ومثير وشائق وشائك في آن معاً.

ولكنه في الوقت نفسه تفاعل مصقول وخفيّ ومتعدد الوجوه والمستويات، ويحتاج تدبره إلى حساسية نفسية واجتماعية وثقافية وفنية مزدوجة تستطيع تدبّره التدبّر الذي يفي بطبيعة نصوصه المركبة، بل المعقدة، لأنها تصدر أصلاً عن حساسية نفسية واجتماعية وثقافية وفنية مزدوجة يعيشها منتجوه في مختلف وجوه حياتهم التي يحيونها في مجتمعاتهم الجديدة التي جاؤوها طوعاً أو كرهاً. وحسب المرء أن يشير في هذا المقام إلى آثار كل من جورج شحادة، وصلاح ستيتية، وألبير قصيري، وأمين معلوف، وأهداف سويف، وإبراهيم فوّال، وفاديا الفقير، والطاهر بن جلّون، وإيتيل عدنان، وسمر عطار، وإدوارد سعيد، ومحمد طعان، وآلان طاسو، وجاد الحاج، و أحمد أبو دهمان، وهاني حمود، ورفيف فتوح، وطاهر البكري، وجويس منصور، وبوعلام صنصال، وربيع علم الدين، وعبد الوهاب المؤدب، ونمر سلمون، و أندريه شديد، وحفيظ بو عزة، وفينوس خوري غاثا، وغسان فواز، وحسين إبراهيم جرجي زريق، وبتول الخضيري، وليلى بركات، ودالیا فتح الله، وسليمان توفيق، ورفيق شامي، وكمال إبراهيم، وميلتون حاطوم، وكارلوس نجار، ورضوان نصار، ومارشيو سوسة، وليجيا طليس وغيرهم، فضلاً عن أدباء الثورة الجزائرية محمد ديب، وكاتب ياسين، ومولود فرعون، والأدباء العرب في المهاجر الأمريكية، وكثيرين غيرهم-هذه الآثار التي تظفر باهتمام واسع ومتنام بين قراء الأدب الحديث. بل إن بعض هذه الأعمال بات ينافس بجدارة على أسمى الجوائز الأدبية القومية والعالمية، ويظفر بتقدير كجيات المؤسسات الأدبية المرموقة في الغرب الأوربي. وحسبه كذلك أن يشير على نحو برقي إلى الجوائز العديدة التي فاز بها الأدباء العرب-المغتربون وطناً ولغةً من الذين ينتجون أدبهم بلغات مواطنهم الجديدة من مثل:

- الطاهر بن جلون (جائزة **غونكور** على روايته **ليلة القدر** عام ١٩٨٧، و جائزة **دبلن-انترناشيونال إمباك** الأدبية لعام ٢٠٠٤ على روايته «**ذلك الغياب**

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 43

المعمي للضوء»)؛

- أمين معلوف (جائزة **غونكور** ١٩٩٣)؛

- أندريه شديد (فاز كتابها «**مواسم العبور**»، بجائزة **ألبير كامو** الأدبية عام ١٩٩٦)؛

- ديفيد معلوف (جائزة **دبلن-انترناشيونال** إمباك الأدبية عام ١٩٩٦)؛

- آلان طاسو (جائزة **جمعية الشعراء الفرنسيين** لعام ١٩٩٦)؛

- عادل قرشولي (جائزة **مدينة لايبزيغ** ١٩٨٥، وجائزة **شاميسو** من الأكاديمية البافارية للفنون الجميلة عام ١٩٩٢)؛

- شوقي عبد الأمير (جائزة **ماكس جاكوب** الشعرية لعام ٢٠٠٤م)؛

- عبد القادر بن علي (جائزة **ليبرس** وهي أهم جائزة أدبية هولندية على روايته: «**الطفل المنتظر**» عام ٢٠٠٣م)؛

- مصطفى ستيتو (جائزة **VSB** الشعرية بدورتها الحادية عشرة، عام ٢٠٠٤م)؛

- حفيظ بوعزة (جائزة «**البومة الذهبية**»، أرفع جائزة أدبية في هولندا وبلجيكا على رواية «**برافيون**» عام ٢٠٠٤م)؛

- حافظ حيدر (فاز **بجائزة الآداب والشعر الإيطالية** لعام ٢٠٠٢م)؛

- آسيا جبار (نالت **الوسام الفضي للرئيس الإيطالي** ٢٠٠٤م)؛

- عزيز شواقي (جائزة **فلايانو** لعام ٢٠٠٤ على روايته «**نجم الجزائر العاصمة**» المترجمة إلى الإيطالية في العام الفائت، وتعد إحدى أهم الجوائز الأدبية في إيطاليا ، وتحمل جائزة **فلايانو** اسم الكاتب والسينيمائي الإيطالي إنيو فلايانو ١٩١٠-١٩٧٢).

وربما كان من المؤسف حقاً أن هذه التجربة الفريدة في التفاعل ما بين الأدب العربي والآداب الأخرى لم تظفر بالعناية الجديرة بأهميتها، وبما يمكن أن تنطوي عليه من تضمنات منهجية بالنسبة لنظرية (الأدب المقارن) أو الدراسة المقارنة للأدب.

بل وأكثر من هذا لقد انصرفت جهود المقارنين العرب وغيرهم من المقارنين المستعربين بالدرجة الأولى إلى دراسة تفاعل الأدب العربي مع آداب أوربة الغربية وأمريكة الشمالية أو العالم المتقدم، ثم إلى دراسة تفاعله مع الآداب الإسلامية بدرجة أقل، أما العناية بتفاعله مع آداب أمريكة الوسطى والجنوبية فتكاد تقتصر على عدد محدود جداً من الدارسين، وأما قضية تفاعله مع آداب جنوبي شرقي آسية فأمر لا نكاد نفكر به، وأما علاقاته الشائكة والشائقة مع آداب إفريقية المختلفة فلا تزال تنتظر اهتمام الأوربيين بله اهتمام العرب من المقارنين، وأما الظفر بمسح عام لعلاقاته هذه ولو بنظر الطائر المحلق، أو برؤية القمر الصناعي فأمل متروك للأحفاد تحقيقه في ضوء أوضاع الباحث العربي المادية والمعنوية البائسة في المجتمعات العربية وفي ضوء أوضاع البحث العلمي الذي لا يدخل دائرة أولويات هذه المجتمعات حتى القادرة منها على تمويله أو القيام به.

إن الناظر إلى الإنجازات النظرية الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة يلاحظ أنها قد صدرت في معظمها عن التجارب القومية الأوربية. فما يعرف عادة بالنظرية الفرنسية التي تعنى بقضايا التأثر والتأثير المتبادل ما بين الآداب القومية صدر فيها أصحابها عن تجربة الأدب الفرنسي في التفاعل مع الآداب الأوربية وآداب الشعوب التي خضعت للنفوذ الفرنسي؛ والنظرية الاسكندنافية التي تنصرف إلى العناية بالآداب الشعبية الشفوية والمدونة منها على السواء تستلهم تجارب الآداب الاسكندنافية وعلاقاتها فيما بينها، وعلاقاتها مع سائر الآداب الأوربية المجاورة؛ والنظرية الأمريكية التي لا تعنى بعلاقة الأدب القومي بالآداب القومية الأخرى وحسب بل بعلاقة الأدب بوصفه فناً جميلاً بسائر أشكال التعبير الفني، والفكري والعقدي، والعلمي أيضاً إنما تستلهم تجربة الأدب الأمريكي الذي ينتجه أدباء ينتمون في أصولهم الأولى إلى تقاليد أدبية وثقافية قومية مختلفة ولكنهم يستخدمون اللغة السائدة في الولايات المتحدة

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 44

الأمريكية-أي الإنكليزية الأمريكية- أداة للتعبير عن تجاربهم الإنسانية التي يعيشونها في وطنهم الجديد سواء أكانوا من الجيل الأول أو العاشر أو ما بينهما، كما ينتجه باللغة ذاتها أدباء من سكان القارة الأصليين الذين يعيشون في مجموعة من المحميات الإنسانية المنتشرة في مختلف التجمعات التي أنشأها المهاجرون القادمون من وراء البحار؛ والنظرية السلافية أو السوفياتية التي تعنى بتشابه البنى التحتية المحددة للإنتاج الأدبي في مختلف التقاليد الأدبية القومية تسعى إلى استيعاب النتاج الأدبي الذي ينتجه أدباء انخرطت مجتمعاتهم المختلفة وتحت مظلة الأيديولوجية الماركسية في عملية التحول الاشتراكي؛ والنظرية الألمانية التي تنصرف إلى دراسة عمليات هجرة النصوص واستقبالها من جانب القراء على اتساع طيفهم في المجتمعات المختلفة إنما تصدر عن تجارب الأدب الألماني في ألمانية وسواها من المناطق الناطقة بالألمانية في أوربة. والأمر نفسه يمكن أن ينسحب على الأنظار المنبثقة مؤخراً من شبه القارة الهندية، أو الصين أو اليابان التي تمتح جميعها من التقاليد الأدبية القومية الخاصة بهذه البلدان.

ولكن ماذا عن التجربة الغنية والعريقة والفريدة للأدب العربي في تفاعله مع الآداب الأخرى؟ هل أفيد منها في إغناء نظرية الأدب المقارن أو الدراسة المقارنة للآداب والفنون؟

هل تم استلهامها في الدراسات التطبيقية التي يقوم بها المقارنون العرب منذ أكثر من قرن من الزمان؟

هل غدت هذه التجربة جزءاً لا يتجزأ من التقليد المقارني العالمي الذي أسهمت فيه مختلف الأمم والشعوب في غرب العالم وشرقه، أم أنها لا تزال بعيدة عنه ما خلا اهتمام المقارنين بالآثار العربية المترجمة ذات الصبغة الكونية وهي: (**كليلة ودمنة، وحيّ بن يقظان، وألف ليلة وليلة**)؟

هل حاول العرب دراستها على نحو شامل وعميق والصدور عنها في بلورة نظرية أو وجهة نظر عربية في الدراسة المقارنة للأدب والفنون؟

- الإجابة على السؤال الأول تحمل في طياتها ما يبعث على الأسى لأن أياً من منظري الأدب المقارن في العالم لم يكلف نفسه عناء التفكير في الإفادة من هذه التجربة، بلهَ السعي إلى استخدام تضمناتها في تطوير أي من جوانب نظرية الدرس المقارن.

- والإجابة على السؤال الثاني تبعث على الغضب، ذلك أن جلّ المقارنين العرب وعلى مدى يتجاوز القرن أو نحو ذلك، قد صرفوا همهم، وهمتهم، إلى تمثل نظريات الأدب المقارن المختلفة التي طوّرتها مختلف التقاليد الأدبية، والسعي إلى تطبيقها على الأدب العربي قديمه وحديثه. وهكذا تراهم يجهدون في مسعاهم إلى التطبيق الآلي والحرفي لهذه النظرية أو تلك التي انبثقت أساساً عن تجربة أدبية قومية خاصة بأمة من الأمم أو شعب من الشعوب، واضعين النصوص الأدبية العربية في الغالب على سرير بروكروست حتى تتناسب مع المقاييس التي توصي بها هذه النظرية التي فتنوا بها افتتانهم بالتقليعات. وربما كان من المفارقة حقاً أن هذا المسعى كان في كثير من الأحيان ينتهي بالخيبة لأنه يتنكر لطبيعة الأدب العربي نفسه ولتجربته. والأسوأ من هذا أن هذا المسعى غالباً ما يتخلف زمنياً عن رواج النظرية المتبناة عقداً أو أكثر من السنين.

- أما الإجابة على السؤال الثالث، فإن من المؤسف حقاً أن تجربة الأدب العربي الفريدة لم تغدُ جزءاً أساسياً من التقليد المقارني العالمي وقد نظرت مؤخراً في أحدث ما ظهر من دراسات نظرية في الأدبين المقارن والعالمي من مثل كتاب **المنظور المقارن في الأدب: مداخل إلى النظرية والممارسة** (٤) (الصادر عن مطبعة جامعة كورنيل عام ١٩٨٨) بتحرير كليتون كولِب وسوزان نوكس، **وكتاب الأدب المقارن** (الصادر عن مطابع فرنسة الجامعية عام ١٩٨٩) لإيف شيفريل (والذي ظهرت ترجمته الإنكليزية تحت عنوان «**الأدب المقارن اليوم: مناهج ومنظورات**» عن مطبعة جامعة توماس جفرسون عام ١٩٩٤ بقلم فريدة إليزابيث

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 45

دهب(٥)، وكتاب **تحدي الأدب المقارن**(٦) (الصادر عن مطبعة جامعة هارفرد عام ١٩٩٣) للمقارني الإسباني الأصل كلوديو غوين، وكتاب **الأدب المقارن: مدخل نظري**(٧) (الصادر عن دار النشر بلاكويل في أكسفورد عام ١٩٩٣) لسوزان بازنيت، وكتاب **قراءة الأدب العالمي: النظرية، التاريخ، الممارسة**(٨) (الصادر عن مطبعة جامعة تكساس عام ١٩٩٤) بتحرير المقارنة الأمريكية المعروفة سارة لوال، وكتاب **الأدب المقارن في عصر التعددية الثقافية**(٩) (الصادر عن مطبعة جامعة جونز هوبكنز عام ١٩٩٥) بتحرير تشارلز برنهايم، وغيرها، ووجدت بكل أسف أنها جميعاً تخلو حتى من الإشارة العابرة للأدب العربي قديمه أو حديثه(١٠)، بل إنها لا تشير إلى الكتب الثلاثة المتقدم ذكرها ولا تذكر نجيب محفوظ الذي فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨.

– وأما الإجابة على السؤال الرابع فإنها لن تعدو الإشارة إلى محاولتي حسام الخطيب(١١) و عبد النبي اصطيف(١٢) ، وهما محاولتان محدودتان لم تؤت أي منهما الثمار المرجوة منها نتيجة طبيعية للظروف والشروط التي اكتنفت مسعاها ومسعى صاحبها وطبيعة تكوينه واهتمامه وخبرته، ولا سيما أن الدراسة الشاملة والعميقة للتجربة العربية الفريدة تقتضي برنامجاً بعيد المدى تقوم على تنفيذه مؤسسات وفرق بحثية عديدة ولا يمكن أن ينهض بها أفراد يقومون بأبحاثهم في الوطن العربي ضمن شروط بائسة .

إن نظريات الدرس المقارن السائدة اليوم لا تعكس إلا جزءاً محدوداً من التجربة الإنسانية في الميدان الأدبي، ومهما كان هذا الجزء مهماً وغنياً ورائعاً فإنه لن يغني هذه النظريات عن التوسع فيما تصدر عنه من تجارب لتشمل جميع آداب العالم، ولاسيما الأدب العربي. وعندها تستطيع أن تضمن الارتقاء بالدرس المقارن وتطويره وتحديثه على نحو يستجيب للتجربة الإنسانية الغنية والمتنوعة والمنفتحة أبداً على التطور والتغير والتجدد التي يهدف إليها المسعى الإنساني الدائب نحو ارتياد الآفاق الجديدة.

وكذلك فإنه إذا ما كانت طبيعة النصوص الأدبية هي ما يحدد المنهج الأمثل لمقاربتها، فإن من الطبيعي أن تكون مناهج الدرس الأدبي ومقارباته الداخلية والخارجية مفتوحة وعلى نحو دائم ومستمر على التطوير والتحديث اللذين يمليهما التجديد والتطوير والتحديث وارتياد الآفاق الجديدة التي تخضع لها النصوص الأدبية المنفتحة أبداً على كل جديد يجسّد الطموح الإنساني نحو الأفضل والأحسن ويكسر رتابة الإلفة والتقليد التي تذهب بألق الفن وتصرف الناس عنه.

من هنا تأتي محاولة الإفادة من تجربة الأدب العربي الطويلة والواسعة والغنية في تطوير نظرية الأدب المقارن، وإغنائها بدراسة أنساق تفاعل الأدب العربي مع الآداب الأخرى قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها، والخروج من ذلك كله بمبادئ، وأسس ومؤثرات تتجاوز ما هو سائد في هذه النظرية، ولا سيما مقولات التأثر والتأثير، والهرمية–أو الطبقية– في علاقات الأمم والشعوب، والنزعات المركزية القاريّة أو الإقليمية أو القومية.

فعلى سبيل المثال يمكن أن يشير المرء إلى رواية مايكل كريتون «**أكلة الموتى**» «**Eaters of The Dead**»(١٣) التي غدت واحدة من أكثر الروايات مبيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية منذ ظهور طبعتها الأولى عام ١٩٧٦، وتحوّلها لاحقاً إلى فيلم بعنوان **المحارب الثالث عشر** فتن الناس بما انطوى عليه من مغامرات وشجاعة ونبل وقيم قدّمت في إطار شائق من حوار الثقافات، وإلى ما يمكن أن تنطوي عليه تجربة التفاعل التي خاضتها مع نص عربي وسيط من تضمنات منهجية بالنسبة للدارس المقارن الذي يحاول أن يدرسها من وجهة نظر أحادية: فرنسية أو أمريكية أو ألمانية أو سلافية أو ترجمية أو صورية أو غيرها.

إن هذه الرواية، باستلهامها **رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة**(١٤)، التي قام بها سنة ٣٠٩هـ الموافقة لـ

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 46

٩٢١م على يد الروائي العالمي صاحب روايتي «**الحديقة الجوراسية**» «**Jurassic Park**»، و«**العالم المفقود** «**The Lost World**» اللتين فتنتا المتلقين في صورتهما المقروءة، وسحرتا المشاهدين عندما تحولتا إلى فيلمين رائعين، ومسلسل «**E R** » أو «**غرفة الطوارئ**»، تفرض بطبيعتها ضرورة تبني المنهج المقارن في دراستها. فهناك بداية صلتها بنص آخر هو نص ابن فضلان الذي أفاد مايكل كريتون مما ترجم منه إلى الإنكليزية ونقله بتحويرات ضئيلة إلى الفصول الثلاثة الأولى لروايته أكلة الموتى. ولدينا بعدها ما قيّد به الروائي نفسه من أسلوب فرضه على نفسه في بقية الرواية عندما كتب فصولها التالية بأسلوب **رسالة ابن فضلان** الذي مضى به إلى الشمال الاسكندنافي في باقي رحلته التي غدت منذئذ رحلة خيالية، حتى أنه أضاف إليها تعليقات وحواشي متعالمة على نحو متطرف ليعزز محاكاته لأسلوب ابن فضلان(١٥). وفضلاً عن ذلك ثمة الصلة التي تنطوي عليها الرواية بين الأمم والشعوب والأقوام التي ينتقل ابن فضلان بين بلدانها حاملاً معه دينه وعقيدته وقيمه وعاداته وأفكاره المسبقة عن الآخر، وما ينجم عن تنقله هذا من تفاعل في عقله وروحه ونفسه التي كانت جميعها في حالة من التأهب والاستنفار والقلق والتوتر بسبب ما مر به صاحبها من تجارب ومغامرات ومخاطر وأهوال.

وكذلك فإن دارس هذه الرواية لا يستطيع أن يغفل صلتها بالتاريخ، أو أن يَغفل عن وثاقة صلتها بالجغرافية الطبيعية والبشرية، والحياة السياسية والاجتماعية للشعوب التي تفاعل ابن فضلان مع أفراد وجماعات منها، مثلما لا يستطيع أن يتجاهل صلتها بتطور الكائن البشري وطبائعه وعاداته التي تخضع لتأثير مظاهر الطبيعة المختلفة. وأخيراً هناك صلة الرواية بوصفها جنساً أدبياً رئيسياً بالفن السابع عندما تحوّلت إلى فيلم غاية في الإثارة والمتعة والتشويق.

يستطيع المرء بداية أن يدرس تجربة التفاعل بين **أكلة الموتى ورسالة ابن فضلان** من وجهة نظر المدرسة الفرنسية التقليدية، وبخاصة أنها تحقق الشرطين الفرنسيين: اختلاف لغتي النصين من جهة، ووجود صلة فعلية بين الروائي الأمريكي والنص العربي من جهة أخرى (فالرواية جزء من الأدب الأمريكي المدون بالإنكليزية، و**رسالة ابن فضلان** من الأدب العربي المدوّن بالعربية، و**مايكل كريتون** يقرّ باستلهامه لـ **رسالة ابن فضلان** عندما يشير في نهاية الرواية إلى مصادره من جهة ص ص ١٨٠- ١٨١، من الرواية، وإلى ما أخذه عن هذه المصادر ولاسيما الرسالة في «ملحوظة تتصل بحقائق **أكلة الموتى**» ص ص ١٨٢-١٨٦ والتي أضافها إلى الرواية في طبعتها الثانية التي ظهرت عام ١٩٩٢)، ويمكنه كذلك **إذا ما أراد أن يتدبّر هذه الرواية التدبّر النقدي الفعال الذي يغطي نصها وسياقاته، متنها وما يتفاعل معه من متون وما يتصل به من حواش وتعليقات، صلاتها بالعلوم والمعارف والفنون الإنسانية المختلفة، أن يعمل بتوصية هنري رماك، التي اختزلها في تعريفه للدرس المقارن للأدب:**

«الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى وذلك من مثل الفنون (كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى) والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية (كالسياسة والاقتصاد والاجتماع)، والعلوم، والديانة، وغير ذلك. وباختصار هو مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخرى، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني»(١٦).

لأنها تكاد تكون وَصفَةً ممتازة لتدبر تجربة التفاعل فيها، لأنها ترسم له بوضوح ودقة استراتيجية قراءته المقارنة لهذه الرواية، وتشكل خير دليل له في هذه القراءة، ولكنها بالتأكيد **لن تكون كافية** للإحاطة بكل ما تتطلبه الرواية ذاتها من أدوات منهجية. وبعبارة أخرى إن الرصيد المنهجي للنظريتين الفرنسية والأمريكية لا يستطيع أن يغطي استحقاقات

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 47

الـدرس المقـارن لـهـذا الأثـر المهـم مـن آثـار الأدب الأمريكي المعاصر المتفاعل على نحو عميق مع أثر رائع من روائع أدب الرحلة عند العرب.

فـهـنـاك أولاً نص ابـن فضـلان المترجـم إلى الإنكليزية الذي شكل أساس الفصول الثلاثة الأولى من نص **أكلة الموتى**، وما خضع له من تحوّلات فرضتها طبيعة الرواية من جهة، وطبيعة عملية الاستلهام الواعي الذي يوجّه عمل الروائي من جهة أخرى، فضلاً عن رؤيته الفنية التي يجسّدها من خلال الأداة اللغوية المشربة على نحو شامل بأسلوب ابن فضلان. ولا ننسى بالطبع ما خضع له نص ابن فضلان العربي من تحويرات وتحوّلات على يد المترجم الذي نقله إلى الإنكليزية في المقام الأول.

وثمة بعد ذلك ما خلفته عملية محاكاة أسلوب ابن فضلان من أثر في بقية فصول الرواية، ناجم عن تفاعل الثقافتين العربية والإنكليزية-الأمريكية في نفس المؤلف وهو ينشئ هذه الفصول.

وهذا الوجه من وجوه التفاعل لا يمكن تدبّره من جهة إلا من خلال ما دعا إليه رينيه إيتيامبل(١٧) من ضرورة إدخال **الأسلوبيات المقارنة Comparative stylistics** في الدرس المقارن للأدب، ودون الاستعانة من جهة أخرى بمعطيات **المدرسة الترجمية** التي ترى في الترجمة ذاتها عملية إعادة كتابة rewriting خلاقة مؤسسة على طبيعة فهم النص الأصلي من جانب المترجِم/ أو معيد الكتابة للنص المترجَم.

وإذا ما ترك المرء قضية اللغة الهجينة في النص الروائي، وانتقل إلى صورة العربي الوسيط، ابن فضلان، التي يقدمها مايكل كريتون، وهي صورة المحارب الشجاع النبيل الذي يكسب بتماسكه وأخلاقه وحكمته قلوب المحاربين الشماليين واحترامهم فضلاً عن تقديرهم، فإنه لاشك سيرى فيها إحباطاً لآفاق توقعات القراء الأمريكيين الذين ألفوا صورة أخرى للعربي شكّلتها رؤية سلبية محفوزة بمواقف مسبقة من قضايا الصراع بين الكيان الصهيوني المزدرع في قلب الوطن العربي والشعب العربي الفلسطيني. وهذه الصورة، كما رسختها الصحافة الغربية، وأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة، والأجناس الأدبية المختلفة، إلى جانب الفن السابع، صورة بائسة قوامها الإرهاب، والأصولية، ومعاداة السامية، والجبر، والجهل، ومناهضة التحديث والتقدم، ومعاداة الغرب، والثراء الفاحش المصحوب بالهدر والتبذير، والشبق، وازدواج السلوك، والاستبداد، والظلم، واضطهاد المرأة، والتنكر لحقوق الإنسان وغير ذلك من القيم السلبية التي نجحت الدعاية الصهيونية ومؤيدوها في ترسيخها في الوعي الغربي.

ومعنى هذا أن الدارس المقارن للرواية بحاجة إلى ما يمكن أن تقدمه دراسات الصورة، أو علم الصور Imagologie من رؤى وآراء وأنظار منهجية ليستطيع من خلالها معالجة مسألة الصورة المرسومة للعربي في هذه الرواية، بكل ما تفرضه من تساؤلات تتصل بطبيعة العلاقات العربية-الأمريكية في مختلف جوانبها، والدور الذي تؤديه الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة العربية على مختلف المستويات. وهناك بالطبع علاقة هذه الصورة بصورة العربي البدوي القريبة من المزاج الرومانتي، وبصورته التي رسختها **الليالي العربية**، أو **ألف ليلة وليلة** في نفوس الغربيين، والدور الذي أدّاه الاستشراق الخيالي في تشكيل هذه الصور.

وأخيراً نحن أمام حالة من حالات التلقي الاستلهامي لنص أدبي عربي كلاسي تمت في مجتمع (بل مجتمعات) غير مجتمعه الأصلي، أي خلف حدود بلده ولغته وثقافته، ويسّرتها ترجمة مجتزأة له، أوقدت في نفس متلقيها جذوة الإلهام، فكتب روايته أكلة الموتى، وتمكّن من خلالها من توطين النص العربي في الثقافة الأمريكية خاصة والثقافة الغربية عامة (بعد ترجمة الرواية إلى عدد من لغاتها)، وقد تعزز هذا التوطين بتحويل الرواية إلى فيلم روائي وسع من دائرة التلقي مثلما عمق فعل التلقي ذاته، عندما جعله تلقياً حياً (بالصوت والصورة) شاملاً يسّره الفن السابع. ومعنى هذا أننا بحاجة من جديد إلى النظرية

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 48

الاستقبالية في الدرس المقارن بكل أبعادها من أجل دراسة هذه الحالة من حالات التلقي الاستلهامي وتدبّر هذا الجانب المهم من جوانب رواية مايكل كريتون.

والخلاصة أن تجربة واحدة محدودة كهذه تنطوي على كل هذه التضمنات المنهجية الغنية الناجمة عن غنى عملية التفاعل التي أقامها النص الأمريكي مع النص العربي، فكيف بآلاف التجارب التي ينطوي عليها سفر الأدب العربي العريق، والغني، والضخم؟ إنه، لا ريب، سيكون نبعاً لا ينضب من الرؤى المنهجية التي ستغني، لا محالة، نظريات الدرس المقارن للأدب، أي أدب. والإنسان بعد ذلك واحد، وأدبه، مثل فنه، لابد أن يكون واحداً.

وكم ينتظر المقارن العربي من عمل مضن وطويل ومثابر في دراسة صلات الأدب العربي بآداب العالم، وتفحص تجاربه الغنية في التفاعل مع هذه الآداب حتى يستطيع أن يسهم بحق في نظريات الدرس المقارن للأدب وأن يسهم لاحقاً في إقامة نظرية عربية في الأدب المقارن؟■

الهوامش

١- انظر:
فان تيغم،
الأدب المقارن،
(دار الفكر العربي، القاهرة) ، ص ص (٦٢-٦٣).

٢- انظر كتابها :
Maria Rosa Minocal
The Arabic Role in Medieval Literary History: A Forgotten Heritage
(University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1987).
وقد ترجم إلى العربية ونشر من قبل جامعة الملك سعود وانظر :
ماريا روزا مونيكال،
الدور العربي في التاريخ الأدبي للقرون الوسطى (تراث منسي)،
ترجمة الدكتور صالح بن معيض الغامدي
(جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩).

٣ - انظر من أجل المزيد من التفصيلات عن هذه التجربة:
د. عبد النبي اصطيف،
«علاقة العرب بالأدب المقارن»،
المعرفة (دمشق)، السنة ٤٣، العدد ٤٩٦، ذي القعدة ١٤٢٥، كانون الثاني ٢٠٠٥،
ص ص ٦٣-٧٣، ولا سيما الصفحات ٦٩-٧١.

٤- انظر:
The Comparative Perspective on Literature:
Approaches to Theory and Practice,
Edited with an Introduction by Clayton Koelb and Susan Noakes
(Cornell University Press, Ithaca and London, 1988).

٥- انظر:
Yves Chevrel,
Comparative Literature Today: Methods & Perspectives,
Translated from the French by Farida Eizabeth Dahab
(The Thomas Jefferson University Press, Kirksville, Missouri, 1995).

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 49

٦ - انظر:

Claudio Guillen,
The Challenge of comparative Literature,
(Cola Franzen, Translator,
(Harvard university Press, Cambridge, Massachusetts and London, 1993).

٧- انظر:

Susan Bassnett,
Comparative Literature: A Critical Introduction,
(Blackwell, Oxford, 1993).

٨ - انظر:

Reading World Literature: Theory, History, Practice,
Lawall Edited and with an Introduction by Sarah
(University of Texas Press, Austin 1994).

٩ - انظر:

Comparative Literature in the Age of Multiculturalism,
Edited by Charles Bernheimer

١٠- ربما كان كتاب إيرل ماينر : **الشعرية المقارنة: مقالة بين-ثقافية في نظريات الأدب**، الصادر عام١٩٩٠ عن مطبعة جامعة برنستون في إشاراته العابرة إلى القصيدة الغنائية العربية والترجمات العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو استثناءً يؤكد ماتقدم من حديث عن انصراف الدرس المقارن عن التجربة العربية ، وانظر على أي حال:

Earl Miner,
Comparative Poetics; An Intercultural Essay on Theories of Literature
(Princeton University Press, Princeton 1990).

١١- انظر:

الدكتور حسام الخطيب،

«بذور وجهة نظر عربية في الأدب المقارن» ،

في كتابه:

آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً،

الطبعة الثانية (دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩)، ص ص ٨٣-٨٨.

١٢- انظر:

Abdul-Nabi Isstaif,
"Beyond the Notion of influence: Notes Towards an Alternative",
World Literature Today
(University of Oklahoma)
Vol.69,No.1, Spring 1995, pp.281-6

١٣- انظر:

Michael Crichton,
Eaters of the Dead:
the Manuscript of Ibn Fadlan Relating His Experiences with the Northmen in A.D. 922
(Arrow, London, 1997).

Thaqafat Ar. Side 4/17/06 2:45 PM Page 50

وقد ترجمت الرواية من جانب تيسير كامل، ونشرتها دار الهلال المصرية مرتين في عامي ١٩٨٥و١٩٩٩م.
وانظر:
مايكل كرايتون،
أكلة الموتى،
ترجمة تيسير كامل، ط٢
(دار الهلال ، القاهرة، ١٩٩٩،)
ومقدمة مصطفى نبيل للرواية ص (٩-١٧).

١٤- انظر:
أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد،
رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة،
حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور سامي الدهان، ط٢ (مكتبة الثقافة العالمية، بيروت، ١٩٨٧).

١٥- يكتب مايكل كريتون في خاتمة كتابه «**أكلة الموتى**» مايلي:
«وعلى الرغم من أن مخطوطة ابن فضلان بكاملها قد ترجمت إلى الروسية، والألمانية، والفرنسية، ولغات أخرى كثيرة، فإنه لم يترجم منها إلى الإنكليزية إلا أجزاء فقط. لقد حصلت على أجزاء المخطوطة الموجودة وضممتها، مع تحويرات ضئيلة فقط، في الفصول الثلاثة الأولى لـ أكلة الموتى. وبعدها كتبت بقية الرواية بأسلوب المخطوطة لأمضي بابن فضلان في باقي رحلته التي غدت الآن رحلة خيالية. وقد أضفت أيضاً تعليقات وبعض الحواشي المتعالمة على نحو متطرف». وانظر:

Michael Crichton,
Eaters of the Dead:
the Manuscript of Ibn Fadlan Relating His Experiences with the Northmen in A.D. 922,
pp. 184-85.

١٦- انظر:

Henry H. H. Remak,
"Comparative Literature: Its Definition and Function",
in
Comparative Literature: Method and Perspective,
Revised Edition,
Edited by Newton p. Stallknecht and Horst Frenz,
(Southern Illinois University Press Carbondale and Edwardsville, 1971), pp.1-57,
particularly p. 1.

١٧- انظر:

Rene Etiemble,
The Crisis In Comparative Literature,
Translated, and with a Foreword, By Georges Joyaux and Herbert Weisinger,
(Michigan State university Press, East Lansing, 1966), pp. 48-9.